وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، وساء حال المجتمع الإنسانى .

والبرهان الحسى قائم على أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم ، وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشاراً وأشد رسوخاً فى نفوس تلك الأمة . وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت فى شىء يستعان دائماً على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبه العقول من غفلتها ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل . وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال . وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الخامس

القَصَص والقصاص فى الصدر الأول

القصاص هم الذين يقصون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم . ينقلون ذلك موعظة واعتبارا ، وكانوا فى القرن الأول يقدمونهم فى حروب بنى أمية ليقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليُحَمِّسوهم بذلك قبل لقاء العدو ، حتى لا تستولى عليهم رهبة ، ولا يملكهم فزع ، ولا ترد وجوهَهم

آمال الحياة . وهو ضرب من السياسة وحسن النظر فى التدبير ، وكان ذلك دأب الحجاج الثقفى أمير العراق لبنى أمية فى حروبه ، لأن أكثر من قاتلهم كانوا من المستميتين ديانة أو حمية ، كالخوارج ، والناقمين عليه وعلى بنى أمية من العرب .

أما قبل هذه الدولة فكانت الموعظة فى الحروب ، والتذكير بوعد الله تعالى للمجاهدين فى إعلاء كلمته من شأن القواد ، يخطبون بذلك الناس ، ولا يتجاوزون الكتاب والسنة وكلمات لهم بين ذلك ، ولم يكن القصص فى زمن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، ولا أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لاجتماع كلمة المسلمين ، وقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما أحدث فى عهد معاوية رضى الله تعالى عنه حين كانت الفتنة بين الصحابة وكان قاصراً على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه . قال السيوطى وأخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا : لم يقص فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ولا زمان أبى بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . وأخرج ابن أبى شيبة والمروزى عن ابن عمر قال : لم يقص على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أبى بكر ، ولا عهد عمر ، ولا عهد عثمان ، إنما كان القصص حين كانت الفتنة . وفى التخريج الكبير للعراقى من رواية الزهرى عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبرانى إلى قوله ولا زمن أبى بكر ثم قال : وأول من قص تميم الدارى استأذن عمر بن الخطاب أن يقص قائماً فأذن له اهـ ومنه عرفت اختلاف الرواية فى زمن حدوث القصص ، ولعله كان قليلا فى زمن عمر وعثمان ثم كثر بمقتله رضى الله عنهم أجمعين . وأول من قص من الصحابة الأسود بن سريع ، وكان يقول فى وعظه إذا ذكر الموت وخاطب الميت:

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمة وإلا فأنى لا إخالُك ناجيا

وأول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثى ، وقد حضر مجلسه عبدالله ابن عمر وسمع منه فكان ذلك داعياً إلى إقبال الناس ورغبتهم فى استماع القص ، لمكان ابن عمر من الدين والورع — وقد أقرته كذلك عائشة رضى الله تعالى عنها

ولم تنكر عليه ، حدث عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا عبيد بن عمير ، قالت رضى الله عنها : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم ، قالت : خفف فإن الذكر ثقيل . وقد اتخذ معاوية رضى الله عنه قاصاً كان يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر ، ولعل هذا من دهائه فى السياسة رضى الله عنه . وأول من لزم القص فى مسجد المدينة مسلم بن جندب الهذلى إمام أهل المدينة وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من سَرَّه أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ثم كان أول من قص فى مسجد البصرة جعفر بن الحسن رضى الله عنه ، وأول من أقرأ القرآن فيه .

ولم يكن القص فى القرن الأول مرذولا لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن والحديث . ولم يكن يشوبه شىء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية ، وأكثره يأخذونه عمن أسلم من أهل الكتاب ، وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة فى قصص الأولين كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة — وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ، وعن هذين الرجلين ، ووهب بن منبه المتوفى سنة أربع عشرة ومائة أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بالأمم ، وأحوال الأنبياء ، والنذر الأولى ، وما يجرى مع ذلك — وكان وهب من الأبناء « أبناس الفرس » لأن جده جاء إلى اليمن فيمن بعثهم كسرى حين استنجدوه على الحبشة ، وقد أخذ آباؤه عن اليمن أخبار اليهود ، وأخذوا عن الحبشة أخبار النصارى ، ثم كان وهب يعرف اليونانية أيضاً ، فاتسع بذلك علمه حتى قالوا عنه إنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وهو أول من صنف قصص الأنبياء فى الإسلام ، وممن أخذوا عنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء ، وتوفى سنة ست ومائة ، ثم ورث الرواية عنه ابنه عبد الله بن طاوس .

ولما كان القرن الثانى وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين

بهم الحسن البصرى رضى الله عنه نشأت بعده الطبقة التى أخذت عنها العامة ، وقد اضطربت الفتن ، وكثر الكلام ، وفشت الأكاذيب فى الحديث ، وأخبار العرب والشعر ، فصار همّ القاص أن يجىء بالغرائب ، ويكثر من الرقائق ، لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية ، ولم يبق فى حلقات القصاص إلا العامة ، فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق ، وصار القاص عند أولى العلم أحمق مخرفاً ، إلا قليلا ممن استوعبوا ، وتبينوا وساروا فى مذهب الرواة (وهو نقل الكذب[1] الذى لا بأس به واسناده إلى أهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان .

ويبتدىء تاريخ هؤلاء بعد الحسن البصرى رحمه الله بموسى بن سيار الأسوارى ، قال الجاحظ وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار ، ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى — ثم قص فى مسجده (بالبصرة) أبو على الأسوارى[2] وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، وابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن تكون الآية قد ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك — وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به ،

---

(١) المراد المكذوب من الحكايات المرغبة فى الطاعة المحذرة من المعصية أو الداعية إلى فضيلة والتخلى عن رذيلة .

(٢) بضم الهمزة نسبة إلى الأساورة بطن من تميم .

وخصاله المحمودة كثيرة — يقولون إن أبا على هـذا لم يُسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحداً من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافأة — ثم قص من بعده القاسم بن يحيى وهو أبو العباس الضرير ولم يدرك فى القصاص مثله .

وكان يقص معهما و بعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . فأما صالح المرى فإنه كان يكنى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، قال الجاحظ فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار من أصحاب الحديث ، كان فى أواخر القرن الثانى قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه . فأتاه على تكره لأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدث قتادة عن الحسن . رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن بدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : ليس هذا قاصاً هذا نذير . ولما نضجت العلوم فى القرن السادس ذهب القصاص وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد ، إذ كان اسم القاص قد أصبح لقباً عامياً مبتذلاً ، وأكثر المتصدرين فى الوعظ إنما يكون من أهل الحديث ، والمتسعين فى العلوم ، ولم يزد المتصوفة فى الأخبار إلا ما يزعمون أنهم احتووه بعلم خاص والله أعلم بغيبه .

وقد اختلف السلف فى مدح القصاص وذمهم فبعضهم يحرض على الحضور عندهم وبعضهم ينهى عنه ، فنذكر لك فصلا يكون فصلا لهذا الأمر فنقول : القَصَصُ قسمان : مذموم ومحمود ، والأول نوعان : « أحدهما » الاشتغال بالقِصص والحكايات عن الأمم السابقة التى يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن الحكيم ، وتزيد عليها ، فإن ذلك مما يندر صحته ، خصوصاً ما ينقل عن بنى إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، كاسرائيليات الخازن ، و بدائع الزهور ، فكان هذا مذموما لما فيه من الكذب ، وعلى فرض خلوه عنه الأسلم البعد عنه ، فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه

الصدق والكذب ، والنافع والضار ، فمن هنا نهى عنه — ولذا قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى به بأساً .

وثانيهما الاشتغال بحكاية أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع ، ومردفة بما يكفرها ومتداركة بحسنات تغطى عليها كما هو المعهود فى حضرات السلف ، فإن العاصى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيها ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن المشايخ وبعض الأكابر ، وكلنا بصدد المعاصى ومن الذى عصم منا فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى مقاما وأحسن حالا ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى ، فكان هذا أيضاً مذموماً لافضائه إلى إفساد حال السامعين .

فى الروض الفائق فى المواعظ والرقائق : أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقاً له فذهب إليه وكان عند المزور خادمة وكانت طريرة حسناء فأعجب بها ذلك الولى الزائر وشغفته حباً ولم يزل كذلك حتى وقع عليها فى زمن يسير — ولما أدرك أن صديقه قد ينزل به من صاب العذاب والأذى ما لاتحمد عقباه فر هاربا . فأتى صديقه وعلم بما كان فعدا خلفه فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده قد مشى فوق الماء فسأله فى ذلك فقال له ذلك قضاؤه وهذا رضاؤه فسر بذلك وخلى سبيله — وما إلى ذلك من الحكايات التى لاحقيقة لها إلا فى خيال هؤلاء القصاص المفتونين وينبذها الدين الصحيح والعقل السليم .

ولذا لما دخل على رضى الله عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول : لايقص فى مسجدنا . ذلك أنه سمع من كلامهم مالا ينطبق على الدين فرأى أن المصلحة فى إخراجهم ، وفى تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها حتى انتهى

إلى الحسن البصرى رحمه الله وهو يعظ الناس فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه ، إذ كان يتكلم فى علم الآخرة ، والتذكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وخواطر الشيطان ، ووجه الحذر منها ، ويذكر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد فى شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ، ونكث عهدها ، وخطر الآخرة وأحوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذى ورد الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه . أخرج السيوطى فى الجامع الكبير والحاكم فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أبا ذر لأن تغدو لتعليم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » هذا .

والقصص المحمود ماخلا عن هذين المحذورين ، ورجع إلى ما اشتمل عليه القرآن الحكيم ، وما صح فى الكتب الصحيحة ككتب السنة ، والتفاسير الموثوق بها . أخرج ابن أبى شيبة والمرزوى عن ابن سيرين قال : بلغ عمر أن قاصا يقص بالبصرة فكتب إليه (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص) إلى آخر الآيات فعرف الرجل فتركه — أى نخبرك ونحدثك أحسن الحديث لما فيه من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى سواه مع المطابقة للواقع ومتانة الأسلوب — ومقصود سيدنا عمر رضى الله عنه تنبيه ذلك القاص إلى السير فى القصص على طريق القرآن ، وتحرى الصدق واجتناب الأخبار التى لايعلم صحتها — فعرف الرجل مقصوده وعجز نفسه عن تحقيقه فترك القص . وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره عن قيس بن سعد قال : جاء ابن عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقص فقال : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . واذكر فى الكتاب إسماعيل) الآية (واذكر فى الكتاب إدريس) الآية . ذكرنا بأيام الله ، وأثن على من أثنى الله عليه . يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التى وقعت فيها . والمراد عظنا بالترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . فالترغيب بأن يذكرهم نعم الله عليهم وعلى من قبلهم

ممن آمن بالرسل فى سائر ماسلف من الأيام ، والترهيب بأن يذكرهم عذاب الله وانتقامه ممن كذب بالرسل من الأمم فيما سلف من الأيام ، كالذى نزل بعاد وثمود ، ليزداد الطائع ، ويقلع العاصى ، فهذا محمود لأن فيه عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) قال الإمام ابن الجوزى رحمه الله كان الوعاظ فى قديم الزمان علماء فقهاء ، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله ابن عمر رضى الله عنه ، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ، ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم ، وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع فى هذا الفن ، فمن القصاص من يستبيح وضع الحكايات المرغبة فى الطاعة المزهدة فى الدنيا وآفاتها ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذا من نزغات الشيطان ، فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكره الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه غنية عن الاختراع فى الوعظ والإرشاد .

وللخلاص من خطر القص : قال العلماء لايجوز لقاص أن ينقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير معرفة بالصحيح والسقيم و إن اتفق أنه نقل حديثا صحيحا كان آثما فى ذلك لأنه ينقل مالا علم له به ، ولا يحل له النقل من كتب التفاسير لأن فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لايميز الغث من السمين لايحل له الاعتماد على الكتب . وكيف يُقدم مَن هذه حالُه على تفسير كتاب الله تعالى — فلا يحل لأحد بهذا الوصف أن ينقل حديثاً من الكتب بل ولو فى الصحيحين مالم يقرأه على من يعلم ذلك من أهل الحديث ، فقد حكى الحافظ أبو بكر بن خير اتفاق العلماء على أنه لا يصح لمسلم أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا حتى يكون عنده هذا القول مرويا ولو على أقل وجوه الروايات .

فالذى تلخص مما ذكرنا أنه لا ينبغى أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم الحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم العارف بصحيحه وسقيمه ومسنده

ومقطوعه ، العالم بالتواريخ و بسير السلف الحافظ لأخبار الزهاد الفقيه فى دين الله العالم بالعربية واللغة . ومدار كل ذلك على تقوى الله و إخراج الطمع من أموال الناس وحب الثناء والمدح من قلبه . كذا حققه الإمام ابن الجوزى رحمة الله عليه .

وجملة القول أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع : نوع مقبول بلاشك وهو مااشتمل عليه الكتاب وصحت به السنة . ونوع مردود بلاشك وهو مالا يصدقه العقل ولا يشهد له النقل . والثالث مجهول الحال ، وهذا يجب علينا قبل الحكم عليه أن نضعه فى ميزان الشرع القويم ، والعقل السليم . فإن أيده الشرع وصدقه العقل قبلناه ونشرناه كعبرة أو دعوة إلى خلق كريم . و إلا تركناه وراء ظهورنا ووليناوجوهنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الكفاية لمن أراد الهداية (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) أى ذلك الرد خير لكم وأحسن عاقبة .

ومن أمثلة النوع الثالث ماروى أن رجلا من بنى إسرائيل وجه ابنا له فى تجارة فمضت أشهر ولم يقف له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ؛ فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما فسأله أبوه هل أصابك فى سفرك بلاء ؟ فقال له نعم غرقت السفينة بنا وغرقت مع جملة الناس و إذا بشابين أخذانى فطرحانى على الشط وقالا لى قل لأبيك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بزائد عليهما .

ومنها ما روى أن رجلا جلس يوماً يأكل هو وزوجته و بين يديهما دجاجة مشوية فقرع الباب سائل فخرج إليه وانتهره فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت عنه نعمته وطلق زوجته ثم تزوجت بعده برجل فجلس يأكل فى بعض الأيام هو وزوجته و بين يديهما دجاجة و إذا بسائل يطرق الباب فقال لزوجته ادفعى له هذه الدجاجة . فدفعتها إليه ورجعت باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن هذا السائل كان زوجها الأول وذكرت قصته مع السائل الذى انتهره فقال لها زوجها أنا ذلك السائل . فهذا وأمثاله لو عرض على موازين الشريعة الغراء

بله والعقل السليم يصدقه فهو يدخل فى مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه ر صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأً) وأن منع الصدقة عن مستحقها يجعل العزيز ذليلا فالظلم عاقبته وخيمة .

الفصل السادس

الوعظ فى القرن السادس وتقدير الأمراء له

كانت مدينة السلام (بغداد) تمتاز على غيرها من مدن العالم الإسلامى بكثرة فقهائها المحدثين . ووعاظها المذكرين . وكان لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير . والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير . مقامات تستنزل لهم من الله تعالى واسع الرحمة وجزيل الإحسان ، وتمنع القارعة الصما أن تحل بدارهم . مقامات خلدت لهم أحسن الذكرى وجميل الأحدوثة . قال أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الأندلسى من أدباء القرن السادس فى رحلته ما محصله — فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . والمشار إليه فى التقديم فى العلوم حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة . فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مؤثرة — ثم اندفع الإمام المذكور وخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم وجهت إليه المسائل من كل جانب فأجاب عنها وما قصر ، ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها فى يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجمع : فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هيناً ليناً لهجت فيه البركة والسكينة أرسلت فيه العبرات لا سيما فى آخره فانه سرت حميا وعظه فى النفوس حتى أطارتها خشوعا وفجرتها دموعا . وبادر التائبون إليه وقوعا على يده .